رواية
«من أنّت أيّها الملاك؟!»
وقضية اندثار شعب

الدكتور غسان غنيم*

الملخص

هي رواية الاستسلام، لقدر محتوم يراه الكوني مجسداً في انتهاء الشعب الأمازيغي، وانتهاء ثقافته واندثارها وعدم الأمل بإمكانية عودتها.

لهذا فإن عتبة النص الروائي المشاكسة تدعو المتلقي لقراءة مستغربة فليس ثمة ما يِسوُغ في الرواية لأن يكون العنوان (من أنت أيها الملاك)؟ لأنه يبحث عن الملاك المنقذ، ولا يسأل عن هويته التي يعرفها حق المعرفة.

لذلك فالعنوان الأفضل (أين أنت أيها الملاك)؟لتنقذَ هذا الشعب.

إنَّها صرخة يائسة، فقدتْ كل نافذة للأمل قالها من خلال رواية فنية حاولت أن تجسّد هذه الصَرخة.

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

رواية «من أنّت أيّها الملاك؟!» وقضية اندثار شعب

رواية لإبراهيم الكوني الكاتب الليبي العالمي الذي ربا نتاجه السردي على ستين عملاً، أَفْرَدَ معظمه للحديث عن الصحراء .. وأجوائها .. وروحها .. وتقاليدها وحريتها.. وشعبها، حتى غدت رواياته من أهم أدبيات الصحراء في الوطن العربي إن لم نقل في العالم.

وليست هذه الرواية استثناءً، فقد أفردها الكوني للصحراء أيضاً، في صورة تقوم على ثنائية المدينة والصحراء، لتصير الصحراء هي النقاء والوضوح والحرية والقداسة والأصالة،بمقابل المدينة التي تمسي لديه التعقيد والاستلاب،وضياع الملامح، والأسر، والإبهام، والخيانة، والصفقات المشبوهة غير الأخلاقية، وتشويه الإنسان واستلابه واغترابه عن ذاته وعن جوهره الأصيل.

تتوسل الرواية حادثة قد تبدو في منتهى الغرابة والبساطة في عالم الحاضر تنتظم الرواية من أولها إلى آخرها، وهي: محاولة تسجيل مولود في دائرة النفوس يريد أبوه أن يسميه « يوجرتن» ليستعيد ذكرى الأسلاف به.

أمر قد يتكرر في اليوم الواحد آلاف المرات في دوائر النفوس، ولكن دائرة نفوس «الكوني»، ترفض تسجيل الوليد بحجة أن الاسم «يوجرتن» ليس من الأسماء المنّزلة، ولا تتوافق وسياسة دائرة النفوس . وهذا ما يسوّغ عتبة من عتبات النص تلك التي بدأ بها الرواية[1] « مسافة عشرة أيام أُخر من أرض الجرمنت تنتصب رابية ملح أخرى مطوقة بالمياه والبشر . اسم هؤلاء « آترانتا» لأنهم الأمة الوحيدة من بين الأمم

1- الكوني-إبراهيم: من أنت أيها الملاك -ملحق مجلة دبي الثقافية - يناير- 2009 -العدد20 -ط1.

كلّها المعروفة لدينا.لا تنتحل أسماء منفردة بل تكتفي بإطلاق اسمٍ واحدٍ على أبنائها كلّهم هو « آترانتا».[2]

فليس المقصود لدى إبراهيم الكوني الاسم، لأن الاسم يؤشر إلى شعب، واستبدال الاسم يعني بالنسبة إليه ضياع هوية هذا الشعب، وهذا ما يسوّغ حرب دائرة النفوس التي تمثل السلطة بمختلف مستوياتها السياسية والاجتماعية والأمنية. بل

بمختلف «لجانها» بما تؤشر إليه كلمة لجان على «مسّي» وعلى اسمه وعلى وليده الذي يزمع أن يسميه« يوجرتن». وهو بهذا يريد تثبيت هوية شعب الصحراء الذي بات مضمحلاً، بل ذائباً في ثنايا المدينة، وقد نسي هذا الشعب جذوره، ونسي بصمة الأسلاف، ووصية الروح التي تشكل هوية حقيقية لهذا الشعب. فالقضية التي يعالجها الكوني عبر هذا القناع، هي قضية (الأمازيغ والشعب الأمازيغي) في ليبيا، وضياع هويتهم، واندثار لغتهم، وتيسير السلطات « من وجهة نظره» سرقة تاريخهم وجذورهم،ممثلين بالحجر المقدس المحفور عليه وصية الأسلاف وحكمتهم بلغة هذا الشعب. «بدأ نزيه يسرد الرواية قال: إن «الباي» (بعون خبير طبقات الأرض المزعوم) استولى على التحفة الأثرية النفيسة التي يروق لـــ « مسّي» أن يطلق عليها اسم « الحجر المقدس»، ليقوم بتهريبها إلى ما وراء البحار.»[3]

وقد ألمح الكوني بإشارات كثيرة إلى هذه الفكرة الجوهرية في الرواية بل الفكرة الأساس التي أنشأ الرواية من أجلها في مواضع كثيرة من الرواية.. من ذلك ردّ موظف دائرة النفوس لمحاولة تعليل عدم تسجيل الاسم «يوجرتن» في الدائرة والطلب إلى مسّي تغييره.

2 - هيرودوت «التاريخ»- ج 3- 184-نقلاً عن بعض عتبات الرواية (من أنت أيها الملاك)-ص15.

3- الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 23

«- لا أريد أنْ تنسى أن في داخل جوف هذا الوطن يسكن أهل عودة من جنس آخر، يشكلون على وحدة الهوية خطراً يفوق بكثير الخطر الذي تشكله الجيوش العائدة من الخارج .

سكت لحظة ثم أضاف بلهجة ذات معنى:

أولئك هم حملة الأسماء الدخيلة التي تريد أن تقنعنا بوجوب التسامح معهم[4].»

وفي موضع آخر من الرواية يؤكد الموظف « نحن نضع وحدة الهوية فوق كل اعتبار، لأننا لا نحيا بناموس التاريخ، ولكننا نحيا بقوانين الواقع الحاضر.» [5]

المسألة إذن، ما تعنيه عودة تداول هذه الأسماء. وهذا ما دعا موظفاً أعلى هو (صاحب الاستجواب[6]) إلى سحب هوية « مسّي» أيضاً لأنه وجد في اسمه استعادة لروح شعب كاد يصيبه الاندثار. فقد تعّمد الكاتب أن يبرز الاسم «مسّي» مع أسماء الأسلاف « مسّي بن مسّي بسّا بن مسّي نسن»[7]

ليبرز هوية شعب ضاعت ملامحه أو كادت، عبر نسيان هذه الأسماء التي يصّر «مسّي» عليها، على الرغم مما يجّره إصراره عليه، حين يصّر رجل الاستجواب كما سماه، على سحب هوية « مسّي» متهماً إياه بالتزوير، حين عجز عن إقناعه بسحب طلب تسجيل اسم وليده « يوجرتن».

وتتوالى الأحداث اللاحقة جميعاً مبنيةً على هذا الحدث الرئيس، فيُعاقب مسّي في لقمة عيشه، بعدم تجديد رخصة الحانوت، ثم يعاقب الطفل بعدم دخوله المدرسة

4- الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 104
5 ــ الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 105
6 ــ الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 103
7- الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 98.

وانكسار حلم أبيه في رؤيته يعود من المدرسة . وذلك لعدم وجود أوراق ثبوتية وتموت الوالدة كمداً وحزناً، ويقع مسّي ضحية مؤامرة من نظيره في الانتظار "موسى"، الذي وعده بعمل يحبه«مسّي» ليكون دليلاً لجماعة تريد أن تستكشف الصحراء ، لقاء وعد مزّور باستعادة شخصيته وهويته وهوية «خليفة عهده»، كما يصرّ مسّي على تسميته ولكن مسّي يقع في ما يدعى في التراجيديا الإغريقية بالسقطة «الهماراتيا». فطبيعته الخيّرة هي التي تسبب السقطة، التي تجّر على البطل المأساة، وسقطة مسّي هي أنه يصطحب خليفة عهده كما يعتقد « يوجرتن» معه، في رحلة الصحراء هذه، لكي يعّرفه تراثَ الأجداد والأسلاف، وبعض الأسرار خشية أن تموت معه وهو واحد من القلائل الذين يعرفون هذه الأسرار التي تثبت جذور هذا الشعب في الصحراء وجدارته بالعودة وبالحياة، والإسهام في إثرائها« مسّي أردت أن أقول إن احتواء الأجزاء في يقيني دائماً ثراء ــ أمّا التحريم فليس تمييزاً فحسب ولكنه عماء» [8]

ومما يؤكد أن الكوني قصد إلى هذه الفكرة، عتبة أخرى من عتبات النص، تتمثل بلوحة وضعت على غلاف الرواية، تمثل رسومات على الصخر لشعب الصحراء في منطقة (تاسيلي)، التي تمتد على طول الصحراء الكبرى بين غرب الجزائر حالياً والصحراء الغربية في مصر، حيث قامت حضارة « الأمازيغ» وحيث وجدوا وقد كُتبَ تحت اللوحة « اللوحة : لفناني ما قبل التاريخ، الألفية السابعة ق.م الصحراء الليبية ــ منطقة تاسيلي» تصميم مريم السالك « الرواية،الغلاف » واختيار هذه اللوحة يسوّغ إهداء إبراهيم الكوني الرواية إلى مريم السالك لأنها اختارت ما يؤكد وجود هذا الشعب، وما يؤكد حضارته وحضوره القوي في تاريخ المنطقة.واللافت للنظر أن ابراهيم الكوني يختار أغلفة رواياته معظمها من هذه الرسومات، التي تعود

8 ــ الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص105

إلى أزمان سحيقة في رغبة محمومة لتأكيد حضور هذا الشعب في مفاصل التاريخ، وإثبات جدارته بالعودة والتجدد .

تحاول الرواية عرض قضية شعب في طور الاندثار والاضمحلال، كما تعرض ليأس المؤلف إبراهيم الكوني من أية عودة لهذا الشعب، فتبدو الرواية بهذه المنزلة مرثية، وبكائية مرّة على اندثار هذا الشعب، وضياع حضارته ولغته، وتاريخه وهويته، عبر فعل مقصود بين أصحاب دائرة النفوس، والأغيار سارقي الآثار الذين يسهمون في ضياع أقدس الأجزاء من تراث هذا الشعب.. وهو اللغة وأحرفها المدونة على الحجر المقدس.

« هناك أمام حصن مشيّد من الصّلد ينتصب ملتفاً حول الجلمود السّريّ كأنه سور أو تميمة شيّدتّها الطبيعة الصحراوية الحكيمة، لتحمي روحها التي تسكن ذلك الحجر الخرافي، الذي تقول الأساطير إنه يخفي سرّ الصحراء، كان الحجر مسبوكاً من صلدٍ صقيل ناصع غريب عن حجارة صحراء الصّلد السوداء، يقف مستديراً كقاعدة لحجر آخر، يلتحم به التحاماً. ينتصب فوقه ليكوّن قمة مثلثة الأضلاع مزبورة برموز الأبجدية القديمة، بلسان اللغة القديمة الضائعة التي لم يعد في الصحراء من يستطيع أن يفكَّ طلسماتها منذ زمن بعيد على رغم أن كهنة الأجيال التالية يؤكدون أن الرموز ما هي إلا وصية منسية، حفرتها الربّة «تانيت» بمهماز النار على علامتها ذات الأضلاع الثلاثة، لتهتدي بها الأجيال ولكنَّ الوصية أضاعها الزمان، يوم أصيب القوم بداء النسيان، فأضاعوا لغتهم الأصلية بمرور الأيام.[9]»

هذا الشعب الذي أضاع لغته وتراثه سيحكم عليه الكوني بأنه آيلٌ إلى الفناء، وقد تضافرت عليه غوائل الزمان من دائرة السجل المدني « النفوس»، إلى سرقة الأغيار،

9 ــ الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 172 ــ 173.

إلى نسيان أبناء هذا الشعب لغته وتراثه وضياعهما، بل رفض أبناء هذا الشعب أبناء الصحراء العودة إليها،والتمسك بتراثها وحضارتها.

وعندما عرض «مسّي» على خليفته « يوجرتن» أن يرافقه في هجرته نحو الصحراء رفض ذلك بحزم رافضاً الصحراء وتراثها وروحها وحضارتها.

« - ماذا يمكن لإنسان مثلي أن يفعل في مكان كالصحراء التي تتغنى بها كأنها جنات عدن؟!

ــ وأنت ابن الصحراء شئت أم أبيت، لأن الدم الذي يجري في عروقك دم الصحراء مهما أنكرته.

ــ ألم يكن التشبث بذلك الاسم الغبي « يوجرتن» حماقة بلا مبّرر؟

ــ الاسم هوية، ولم يكن يوماً حماقة[10].»

إن الجيل الجديد من أبناء شعب الصحراء ــ اندمج مع أبناء الوطن وما عاد يأبه لخصوصية من أي نوع ــ وإن كان يرفض أي ظلم يقع عليه جرّاء التمييز، لأنه من أبناء هذا الوطن وليس ثمة ما يمنع من أن يسهم في بنائه والدفاع عنه وعن ترابه وثراوته ومقدساته. هذه الفكرة هي التي قادت الكاتب إلى تلك النهاية التي يعلن من خلالها اندثار فكرة تجديد هذا الشعب ومحاولة إعادة بعثه وبعث هويته وخصوصيته من رماد التاريخ، على الرغم من تأكيده في ثنايا الرواية رموز هذا الشعب كلّها التي تؤشر إلى حضوره في التاريخ ــ من أساطير ــ الربة «تانيت» والكتاب المقدس «أنهي» ــ واللوح المحفور «اللوح المقدس» الذي يحمل الوصية إلى جملة من (أمثال) هذا الشعب و(مأثوراته) وعاداته وتقاليده، من مثل رفض فكرة الملكية،[11] ــ

---

10 ــ الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 199 ــ 200

11 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص175

ورفض فكرة الانتقام[12]ـــالاعتماد على النفس والحذر ــ[13]ــ تأكيد فكرة النزاهة[14]..الخ.

وقد جاءت النهاية متسقة مع الواقعية والتفكير المنطقي، فليس ثمة ما يحيي هذا الشعب، وليس ثمة مسوُغ واقعي ومنطقي ولهذا ينعت الابن « يوجرتن» فعل أبيه في التشبث بالاسم « يوجرتن» الذي يفهمه الأب على أنه مؤشر إلى الهوية والانتماء. ينعته بأنه تصرف أحمق لأن الابن فهم الواقع أكثر من الأب الذي يعيش حالة يوتيبيّة ظاناً من خلالها إمكانية بعث الأموات وإحياء الحطب يقول الابن : « ألم يكن التشبث بذلك الاسم الغبي « يوجرتن» حماقة بلا مبرر؟!»[15]

أمام انكسار حلم الأب وأمام تكوينه النفسي كما رسم الكاتب شخصيته ما كان يمكن أن تكون الخاتمة إلا الانتحار، كما فعل مسّي حين نحر خليفته « يوجرتن» ليعلن بذلك انكسار الحلم وانتهاء القضية والوصول إلى اليأس الذي أعلن أنه حلّ من الحلول ونوع من الخلاص الفردي.[16]

فأمام رفض الأبناء التمسك بخصوصيتهم وانحرافهم عن تعاليم الوصية واندثار الوثائق التي تثبت حضارة الشعب وخصوصيته في التاريخ، من خلال سرقة الأغيار «اللوح المقدس» وانكسار عالم مسّي كله الذي يمثله حضور هذا الشعب «الأمازيغ» وحضور حضارته الصحراوية.

12 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 225
13 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 187
14 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 199
15 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 200.
16 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 112.

ما كان أمام الكاتب إلاَّ أن ينهي روايته بهذا الحل ليقول إن عودة الأموات تسبب مشكلات للأحياء، ولا حل إلا بدفن الأموات « استقر النصل المغسول بروح الإله الأبدي في نحر السليل، فخَّر الابن أرضاً، انبثق الدم غزيراً من النحر ليسيل عبر الحضيض، تسلل عبر الأرض الظمأى ليروي شجرة الرتم، فحشرجت الضحية: «كأني أضحية العيد».[17]

بقتل (الخليفة) على هذه الشاكلة حيث يتسلل دم الضحية في شقوق الأرض يؤشر الكاتب إلى أن هذا الشعب قد اختلط مع أبناء الوطن وفقد خصوصيته.

وفي استخدامه مفردة الضحية بدلاً من الابن مؤشر إلى أن هذا الشعب ذهب ضحية ومات دون وجه حق، مما يظهر اعتراض الكاتب وامتعاضه، وتسليمه بالأمر الواقع على الرغم من حزنه باعترافه بالموت المادي للشعب، بالمعنى الذي ذكرته من قبل من حيث اختلاط دماء هذا الشعب مع الأرض ويقصد بهذا أبناء الأرض، الذين شكلوا نسيجها الجديد.

كما يؤشِّر الكاتب بذكاء إلى الموت المعنوي ممثلاً بموت حضارة هذا الشعب، واندثارها، حيث تموت المعتقدات، وتغيب الأفكار التي أبدعها هذا الشعب، ممثلاً لذلك برمز من الرموز المعبرة، وهو الشمس معبود الأسلاف وهي رمز من رموز المعرفة أيضاً. وقد جعلها تغيب وتلفظ أنفاسها الأخيرة بالتساوق مع لفظ الخليفة « الابن» أنفاسه الأخيرة ملوّحة بشعاعها تلويحة وداع نهائية.

«في البُعْد البعيد، لفظ معبود الأسلاف السماوي أنفاسه الأخيرة أيضاً ليسلط على النصل المخضب بالدم شعاعاً مخضباً بالدم أيضاً. كان الشعاع كان تلويحاً بتحية وداع انتهتْ. [18]

---

17 الكوني – إبراهيم : الرواية ص 254.

18 الكوني – إبراهيم : الرواية ص 255

يختم الكاتب روايته بهذا الحل الذي يؤشر إلى حالة إحباط نهائية وانعدام أي أمل في العودة أو التجدد عبر قراءة واقعية متشائمة للواقع المعيشي في تعامله مع قضية عودة أبناء الصحراء أو تفهم خصوصيتهم.

يتعرض الكاتب إلى موضوعات أخرى فضلاً عن الموضوع الرئيس من مثل قضية استلاب المدينة لإنسانية الإنسان وجوهره، ويضعها بمقابل الصحراء بما يمكن أن تمنح الإنسان من حرية وقوة وانطلاق. فالمدينة تجعل الإنسان يغترب عن نفسه ويصبح منفياً ويمسي مجّرد رقم في جمع تتماهى فيه الوجوه، ولا خصوصية لشخصه، ولا تميز له ، كما تُفْقِد المدينة الإنسان حريته التي يولد عليها وتعطيه أماناً زائفاً.

«العمران يشترى بعملة مزوّرة، هي الأمان الزائف ليصادر الحرية بهذا الثمن البخس.» [19]

وتأخذه فكرة المقارنة بين المدينة والصحراء، فيتعرض لمحاسن الصحراء ويقابلها بمساوئ المدينة، بما تجره على صفاء الإنسان وعلى نقاء جوهره وتعقيد حياته وتشيُّئه ومصادرة روحه مقابل حالة استلاب واستهلاك زائفة، لا تعطي لإنسانية الإنسان أية إضافة بل تسلبه وتستلبه، فتعّريه عن جوهره وعن ذاته.

مسّي « ذنبي الوحيد أنني نزلت إلى المدينة.» [20]

كما يتعرض لمشكلة التعقيد في حياة المدينة فكل شيء فيها محاط بالغموض والسراديب والأبواب المغلقة المحروسة، مما يذكر بأجواء (كافكا) في (المحاكمة) واستلاب بطله (جوزيف ك) أمام قوى لا يراها محاطة بالأسرار، وتسيطر على حياته

19 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 90

20 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 134

كلها، وتتحكم بتفصيلاتها ونقائها تحكماً كاملاً. وكما تسيطر على بطل كافكا فكرة فهم التهمة التي ألصقت به دون ذنب حتى تصبح هوساً يومياً يصرفه عن ممارسة حياته بشكل اعتيادي. كذلك تصرف فكرة تسجيل الوليد ولي عهد مسّي عن ممارسة الحياة بشكل طبيعي، وتتركه أسير حالة الانتظار المضنية من دون أن يفهم المغزى، ثم يتسردب في أقبية ودهاليز كما حصل (لجوزيف ك) في المحاكمة لينتهي بالاندثار كما حصل مع بطل المحاكمة دون أنْ يفهم السّر الكامن وراء حصاره.

ومن الموضوعات الفرعية الأخرى قضية الرجل والمرأة وعلاقة كل منهما بمغزى الوجود.. فالرجل هو الروح، والمرأة هي الطبيعة الجسد، الذي يودع في داخلها الرجل الروح وبذرة الحياة.

« هذا اللغز (الروح) هو غنيمة الرجل، كما الطبيعة « الجسد» هو كنز المرأة. بهذه الوصفة يستزرع الرجل أحجية الخلود في بطن الطبيعة الزائلة لتنتج هذه المبادلة اسماً باقياً.» [21]

ثمة موضوعات أخرى إلا أنها تتموضع في ثنايا السرد لخدمة الفكرة الرئيسة التي تعالج قضية غياب شعب بتقاليده وأعرافه ومعتقداته وقيمه وحضارته، واضمحلال هذا كله لصالح الفناء والاندثار.

توسل الكاتب أسلوب السارد العارف فتحدث بضمير الغائب، فالسارد يتحدث عن الأحداث والشخصيات بمعرفة تامة لكل ما وقع، بل وما يمكن أن يقع متخذاً من التسلسل الزمني الفيزيائي الطبيعي سبيلاً دون خلط للأزمنة، إلا ما ندر عندما تسترجع الشخصية الرئيسة بعض ذكريات الصحراء ويتم ذلك غالباً بإشارات سريعة وامضة.

---

21 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 106

ولكن الكاتب لا يكتفي بهذا الأسلوب، فللإيحاء بواقعية الحدث يلجأ إلى الحوار الذي يكثر في ثنايا الرواية بين مجموع الشخصيات، جاعلاً منه أداة مهمة في السرد للوصول إلى فهم الشخصيات وفهم الأحداث، ولرسم صور للشخصيات من خلال إنطاقها بمقولاتها. وهذا ما نلمسه في مفاصل كثيرة من الرواية. وعلى الأخص حين تلتقي الشخصية الرئيسة « مسّي » مع موظف دائرة النفوس،أو مع رجل الاستجواب حيث تدور حوارات عقائدية يحتدم فيها النقاش للدفاع عن وجهات النظر التي يعتقد بها كل طرف من الأطراف، مدعومة بالأدلة التي أظهرت حياد الكاتب أحياناً على الرغم من أن مجمل العمل يؤشر إلى نوع من الانحياز العاطفي للكاتب.

« ــ أدعياء العودة الذين انقضُّوا على البلاد في السنوات الأخيرة انقضاض الجراد، ما إن اشتموا في ربوعها رائحة الثروة في حين تخلوا عنها يوم حاقتْ بها البليّة.

ــ ولكن اغترابي لم يكن عودة من أي مكان!

حدق الرجل فيه باستهانة. قال ساخراً!

ــ لا أحسبك سقطت على هذه الدّيار من السماء!

- أعني الصحراء التي جئتُ منها، جزء لا يتجزأ من هذا الوطن، علاوة على أنها لم تكن يوماً مكاناً ككل مكان.

ــ لا أريدك أن تنسى أن في داخل جوف هذا الوطن ، يسكن أهل عودة من جنس آخر،يشكّلون على وحدة الهوية خطراً يفوق بكثير الخطر الذي تشكّله الجيوش العائدة من الخارج.

سكت لحظة ثم أضاف بلهجة ذات معنى:

ــ أولئك هم حملة الأسماء الدخيلة التي تريد أن تقنعنا بوجوب التسامح معهم.

ـــ أليس خطيئة في حق الوطن أن نمنع من التداول تلك الأسماء التي افتدى أصحابها حرية الوطن بأرواحهم يوماً؟

ـــ نحن نضع وحدة الهوية فوق كل اعتبار، لأننا لا نحيا بناموس التاريخ ولكننا نحيا بقوانين الواقع الحاضر.

ـــ واللهفة على وحدة الهوية لا تجيز لنا أن نطلق النار على التاريخ.»[22]

اقتطفتُ هذه الحوارية الكبيرة نسبياً، لأدلل على أن الكاتب في لجوئه إلى أسلوب الحوار لم يفرض آراءه على شخصياته، بل ترك لها الحرية المطلقة، وبحيادية عالية نسبياً للحديث والتعبير عن ذواتها دون تدخل. فكل شخصية تعرض آراءها التي تعتقد بصحتها وصوابيتها من خلال ما تنطق به من أفكار ومعتقدات، فمسّي يطالب بخصوصية يعتقد أنها من حقه، لشعب ذي خصوصية لغوية وحضارية وعقيدية، ويرى في الاعتراف به حقاً مشروعاً، ويناضل من أجل ذلك بكل ماأوتيَّ من عناد وقوة. ورجل الاستجواب ممثل السلطة يعرض وجهة نظر السلطة بمنطقية وعلمية، فالخوف على الوحدة الوطنية، يؤدي إلى محاربة التشرذم وعدم الإقرار بوجود خصوصيات داخل هذه الوحدة التي تسعى إليها الأوطان كلها في كل زمان وكل مكان.

اتسمت لغة الرواية بواقعية صارمة في السرد والحوار، ولم تخرج عن واقعيتها هذه إلاَّ في حالات الوصف التي يختلط فيها المكان بمشاعر الشخصية، كما هي الحال مع مسّي عندما يقف أمام الصحراء.. ومهابتها.. وجمالها كما في الفصل (24)و(25).. أوعندما يجعل من الطبيعة معادلاً لفكرة أوحالة، أو حينما يشخّصها كما هي الحال مع خاتمة الرواية، في الفصل (36) مع شجرة الرتم ومع الشمس. وفيما عدا ذلك تبدو اللغة واقعية، تتناسب مع الفكرة التي يريد الكاتب للغّة أن تؤديها. وهذا

---

22 الكوني ـــ إبراهيم : الرواية ص 103- 104 - 105

الجانب من محاسن اللغة الروائية. فليس الشطط في الشاعرية في لغة الرواية من محاسنها من دون أن ينفي ذلك أدبيتها.

تبدو الشخصيات حيّة على الرغم من أنها تعبّر عن شرائح وأفكار، وتمثل ذاتها أيضاً، « فمسّي» يمثل البقية الباقية التي ما تزال تعيش في أحلام العودة والانبعاث لشعب قاب الاندثار أو أدنى، بحكم الاختلاط والاضمحلال، واندثار معطياته الحضارية من لغة وعادات ومعتقدات.

والابن « يوجرتن» يمثل الجيل الجديد من هذا الشعب، الذي آثر الاندماج وعدم التمسك بالخصوصية، التي وجد فيها مجرد حماقة أونوعاً من المكابرة غير الواقعية أَوْقَعتْه أو قد توقعه بالخسران.

والموظف الكبير في دائرة النفوس، ورجل الاستجواب، وبعض الموظفين، يمثلون السلطة وينطقون عن وجهة نظرها،ويجسدون منطقها الواقعي.

والباي: شخصية تمثل كل الأدعياء المتعاملين مع الانتهازيين في الداخل في «دائرة النفوس» والمتعاملين مع الأغيار، ممثلين بالرجل الأشقر الذي ادعّى أنه خبير في طبقات الأرض. ولكن الكاتب وللحق استطاع أن يوفّق بين الشخصية التي استطاع رسمها من لحم ودم، والفكرة أو الشريحة التي تمثلها، فجعلها تنطق كشخصية فردية إنسانية، وتعبّر في الآن ذاته عن آراء الشريحة التي تؤشر عليها وتتحدث نيابة عنها في الرواية وهذا ما جعل الشخصيات نابضة حيّة على الرغم من تعمّد الكاتب جعلها ممثلة لوضع عام، أو لشريحة ذات خصوصية، أو لسلطة أو شريحة اجتماعية.

ولكن اللافت في هذه الرواية خلوّها شبه التام من الشخصيات الأنثوية عدا ذكر عارض لموت زوجة (مسّي) كمداً على عدم تسجيل وليدها في دائرة النفوس بعد مماطلة وتسويف، وعدا هذا الذكر العارض لا نجد حضوراً من أي نوع للشخصيات الأنثوية، وقد يبدو هذا غريباً في رواية تتجاوز (250) صفحة، وكأنما الفكرة التي

أراد الكاتب عرضها جعلته يُقبلُ على عرضها عبر شخصياتٍ ذكرية ولم يجد ثمة حاجة لوجود الأنثى شخصية تسهم في نقل الفكرة أو التعبير عنها.

وثمة إشارة لافتة إلى الشخصية الأنثوية التي وردت في الفصل (23)، فيها شيء من الإطلاق الذي لا يتعلق بشخصية الأم في الرواية بل فيه إطلاق الحكم على النساء كلّهم، ففي أثناء الحديث عن تقصير مسّي في رعاية ولده، والانصراف إلى ملاحقة دائرة النفوس وعملية التسجيل، يقول ابنه وخليفة عهده كما يسميه « تركه بين يدي الأم رهينة في الآونة الأولى لتتولى تربيته، ونسي أن الأم لم تكن يوماً مربيّة حتى لو شاءت أن تربي[23].»

فالخطاب لم يتوجه إلى (أم يوجرتن) الشخصية، بل إلى كل أم. وقد وضع المفردة في حالتها المطلقة « الأم ». ولكن هذا ــ على الرغم من أنَّه مؤشرــ إلا أنه ليس مسوّغاً لعدم وجود أي حضور للشخصيات الأنثوية في الرواية.

واللافت أن الكوني يؤشر إلى قضية المرأة في روايات أخرى، فيبثُّ إيماضات سريعة تُلمحُ إلى ظلال موقف من الشخصيات الأنثوية في رواياته. ففي رواية(برّ الخيتعور) تتحدث شخصية الملك المولى «جلالته» كما يسميه الكاتب عن المرأة بشكل فيه كثير من السلبية. فالملك يهرب من بيت (اليقظة) كما يسميه إلى (بيت الحق)، وعندما يعاتبه بعض حاشيته، ويذكره بأنه هو من أشار إليهم بالتداوي بترياق الحسان. يقول: «وكيف تريدونني أن أنعم بالحياة في (بيت اليقظة) إذا كنتم قد دسستم لي في المخدع حيّة؟»

ثم يقول « مالا أجد له تفسيراً، هو كيف استطاع الأسلاف أن يتركوا لنا وصايا كانت لنا تمائم ضد علل حياة الباطل، فتخونهم الحكمة لينصبوا المرأة على رقابنا وصياً؟»[24]

---

23 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 166

24 الكوني – ابراهيم: بر الخيتعور ــ منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام ــ الجماهيرية العربية الليبية ط2006/3- ص 238 ــ 239 و ــ ص241.

قد يكون في مثل هذه الأقوال التي ترد على ألسنة بعض شخصيات الكوني ظلال موقف من المرأة، لانجزم به لعدم استقراء نتاج (الكوني) السردي الضخم كافة.

تبتعد الرواية في أساليبها السردية عن التعمّل أواصطناع الأساليب الحداثية من خلطٍ للأزمنة، أو استخدام لأساليب نبش منطقة اللاوعي، وتبقى محافظة على إيقاع واقعي متخيل. وتصطنع اللغة أسلوباً واقعياً لنقل الأحداث مهما كانت غريبة.

وهي لغة رشيقة بسيطة مطعّمة ببعض الحِكَم التي يستقيها الكاتب من خلفية تتعلق بشعب الصحراء، الذي يتحدث عنه وعن اضمحلاله ومعاناته وأزمة أجياله، مع محاولة إعطاء الأحداث خلفية أسطورية في محاولة من الكاتب لأسطرة الواقع حينما يعطي للمكان خصوصية تقوم على الإدهاش في وصف متعلقاته في وادي صحراء الصلد حيث الحجر المقدس، الذي يختلف لونه عما سواه، مما يعطيه خصوصية تأتي من قدسيته وانفراده بلونه الأسود في محيط من الصلد الأشقر.

كما تتجلى الأسطرة في الفعل الذي يقوم به تجاه ابنه وهو« القتل» «قتل الأهل والأولاد والأحبة» وهو فعل قد لا يمارس إلاَّ في الأساطير كما حدث مع (ميديا) التي قتلت ولديها انتقاماً من خيانة زوجها (جيسون) و(أورستس) الذي قتل أمه وعشيقها و(كرونوس) الذي قتل أولاده و(ست) الذي قتل أخاه أوزوريس وبرسيوس الذي قتل جده خطأ وغيرهم .

فمثل هذا الفعل لا يحصل عمداً في الأزمنة الحديثة التي تشكل الفضاء الزمني للرواية، لو لم يكن الكاتب يريد أسطرة الواقع لإخراجه من الزمان، وإعطائه بعداً أسطورياً وليؤكد أن للشخصيات بعداً فكرياً ورمزياً يتقصده الكاتب ويتعمّد إيصاله للمتلقين.

ثمة تناصات عديدة في الرواية تعتمد على الامتصاص فحين يتحدث مسّي في الفصل (22) عن الناس الذين خلقوا من جنسين اثنين، أو من طينتين مختلفتين في

سجيتهما كل الاختلاف. فجعلهم قبيلتين ــ إحداهما استقرت وعاشت من حرث أمها الأرض. والثانية احترفتْ الترحال والرعي. ثم حدث أن تقّربتْ قبيلة الاستقرار من المعبود بنصيب من غلال الأرض، في حين تقربت قبيلة الترحال بنصيب من الأنعام، فقبل المعبود من الثانية أضحية النَّعم، ورفض تقدمة الزروع فنشب الخلاف، وكوفئت قبيلة الترحال بالنبوّة في حين ترك لقبيلة الاستقرار أمر الحرفة، وهكذا صارت النبوة من اختصاص قبيلة الترحال[25].

هذه الحادثة التي يوردها مسّي في الرواية هي محاولة منه لتفسير البدايات «التكوين» لابنه وخليفته « يوجرتن» و هي إعادة صياغة بشكل فنّي لقصة هابيل وقايين كما وردت في سفر التكوين الإصحاح الرابع، وقد جاء فيه : « وعرف آدم حواء امرأته وولدت قايين، وقالت اقنيتُ رجلاً من عند الرب.» ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الأرض، وحدث بعد أيام أن قايين قدّم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها، فنظر الرب إلى هابيل وقرْبانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جداً، وسقط وجهه. وكلّم قايين هابيل أخاه، وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله.[26]

يبدو أن الكتاب المقدس في عهده القديم واحد من أركان ثقافة الكاتب « إبراهيم الكوني» الكثيرة والمتعددة الجوانب. وهو غالباً ما يلجأ إلى هذا الكتاب يتناص معه، ويخلق تواشجات بين مواقفه ومواقف شخصياته أحياناً، وأحياناً يستعين بمقبوس يدل على معرفته العميقة بهذا الكتاب. ففي روايته « المجوس» مثلاً يقتطع أقوالاً من سفر الجامعة لتكون فاتحة وعتبة للفصل الأول الذي وضع له عنواناً القبلي[27].

---

25 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 159
26 الكتاب المقدس: العهد القديم ــ دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط 1986 ــ تكوين، الإصحاح الرابع، (1 ــ 6) و(8 ــ 9)
27 الكوني – إبراهيم المجوس – منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام ط 5 /2006

«الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال. تذهب دائرة دوراناً وإلى مداراتها ترجع الريح.» «العهد القديم ــ سفر الجامعة»

كما يفتتح الفصل الرابع الذي وضع له عنواناً (الحية) بعبارات من سفر التكوين ويتناص في ثنايا السرد مع بعض مزامير داود. حين يقول:«قالت له الصحراء مواسية: باطل كله باطل. الذرية باطل. الزوجة باطل. الشرف باطل. وأنت نفسك باطل الأباطيل.» [28]

وفي روايته «الدنيا أيام ثلاثة» يتناص مع سفر الجامعة: «بعيدُ ما كان بعيداً، والعمق العميق من يجده.»[29]

مثل هذه التناصات لا تثبت معرفة الكوني بالكتاب المقدس «العهد القديم» فقط، بل تثبت تمثّله والصدور عنه في بعض مواقف شخصياته، وفي تركيب بعض حوادث رواياته.

وهذا ما نجده في خاتمة الرواية التي بين أيدينا. حين يصحب مسّي ابنه وخليفته الوحيد إلى قرب شجرة القداسة بإيحاء من وصية الناموس المفقود « آنهي» ليقوم بقتل ابنه وخليفته عبر آلية تناص الحوار، كما صنّف محمد بنيس قوانين التناص معتمداً على كل من جوليا كريسيتفا ورولان بارت ــ وثرفيتان تودوروف.

إذْ قام الكاتب بقلب النص الغائب وتحويله عن الأصل ليحدث شعرية واضحة في نصه عبر التطوير والقلب والتحويل.

« استل صاحب الاغتراب نصل الُمدية المثبّت في ذراعه في اللحظة التي بدأ فيها الإله المسربل بالدّم يتوارى تلبية لنداء ناموسه الخالد. لوّح الأب بالمدية في الفراغ فاغتسل النصل النهم بشعاع الدم قبل أن يستقرّ في النحر.

28 الكوني – إبراهيم : المجوس – ص 647

29 الكوني – إبراهيم : الدنيا أيام ثلاثة . اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام. /2006 ص 228.

استقرّ النصل المغسول بروح الإله الأبدي في نحر السليل، فخَّر الابن أرضاَ. انبثق الدم غزيراً من النحر، ليسيل عبر الحضيض. تسلل عبر الأرض الظمأى ليروي شجرة الّرتم، فحشرجت الضحية: كأني أُضحية العيد.»[30]

هذه النهاية التي جاء بها الكوني خاتمة لروايته، تتوافق مع نص من العهد القديم عبر آلية الحوار السابق ورودها، يتحدث عن إيحاء الله لإبراهيم (عليه السلام) أن يقدّم ابنه الوحيد وخليفته قرباناً للرب، فأقدم النبي إبراهيم غير هياب لإيمانه الشديد بالله، على تقديم ابنه الوحيد قرباناً للرب. إلا أن الله افتداه بكبش لتصير عادة ذبح الكباش في العيد الكبير سُنّةً يسير عليها البشر إلى يوم الناس هذا.وهذا ما يفسر قول الولد الضحية في الرواية : «كأنني أُضحية العيد».

جاء في العهد القديم « فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك إبراهيم المذبح، ورتّب الحطب وربط اسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، ثم مّد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الرب من السماء وقال : إبراهيم إبراهيم، فقال هأنذا، فقال : لا تمدَّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأني اليوم علمت ُ أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنّي. فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه.»[31]

لم يأتِ الكوني بهذه النهاية إلا ليعيد صياغة النص الغائب عبر الحوار، وليذكّر به فكلا الوالدين أقدما على التصرف بإيحاء من قوى عليا. (مسّي) رأى في شجرة الرتم المنفردة « رسالة موجهة إليه هو كسليل صحراء وحيد يعرف حقيقة الرتم المقدس»، و(إبراهيم) جاءه صوت ملاك الرب، وكلاهما استجابا للإيحاء. ولكن استجابة (مسّي) تُوِّجت بالفعل، ولم يأتِ ملاك الرب ليفتدي خليفته وابنه الوحيد كما

30 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 254

31 الكتاب المقدس ــ تكوين ــ اصحاح 22 / من 9 ــ 14

حدث في النص الغائب. وهنا حصل الحوار حيث بدّل الكوني الفعل ليخدم دلالة الرواية، وليوصل الفكرة التي أراد. وهي أن هذا الشعب الذي يتمثل (بمسّي) وخليفته الوحيد « يوجرتن» لابدَّ آيل إلى الفناء مع عقائده وثقافته، ولا شيء يفتديه من مصيره المحتوم أبداً. وليس ثمة صوت لملاك يقول لمسّي: اترك الغلام، لأن الواقع يقول بأنه شعب آيل للفناء والاندثار. ولا كبش يمكن أن يفتديه ليكون شعباً وأمماً وملوكاً وشعوباً منها يكونون كما وعد الرب إبراهيم.[32]

ومن هنا فإن العنوان الأصح للرواية « أين أنت أيها الملاك؟» وليس «من أنت أيها الملك؟ » فتكون صرخة استغاثة لإنقاذ خليفة هذا الشعب، واستقداماً لكبش من أي مكان أتى ليفتدي هذا الشعب. وإلا فما معنى العنوان كونه عتبة من العتبات المعبرة، المؤشرة. فليس ثمة ملاك بين شخصيات الرواية، وشخصية (مسّي) لا تحمل سماتٍ ملائكية فهو أرضي، يحزن ويتأثر ويغضب ويقتل. إن الملاك المقصود هو الملاك المنقذ المطلوب المرجو، والمَيْئُوس من حضوره في اللحظة المناسبة، والمقطوع الأمل منه. فالعنوان الأكثر تعبيراً هو ــ أين أنت أيها الملاك؟ وقد تخلّى معبود الأسلاف عن الخلائف «في البُعد البعيد لفظ معبود الأسلاف السماوي أنفاسه الأخيرة أيضاً.»[33] ليعلن الكوني يأسه وإحباطه وانقطاع آماله وتسليمه بالفناء المحتوم، لفكرة العودة والتجدد، لصالح فكرة الاغتراب والفناء وانتهاء المسألة. رفُعتِ الأقلام وجفتِ الصحف وانكسر الأمل ولم يبق إلا الموت والاندثار.

---

32 الكتاب المقدس ، تكوين: 17/17

33 الكوني ــ إبراهيم : الرواية ص 254 ــ 255

المصادر والمراجع

أولاً ــ المصادر:

1 ــ الكوني ــ إبراهيم: من أنت أيها الملاك ــ ملحق دبي الثقافية يناير/ 2009 ــ العدد 20 ــ ط1.

ثانياً ــ المراجع :

1 - الكتاب المقدس ــ العهد القديم ــ دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط 1986.

2 – الكوني، إبراهيم: برُّ الخيتعور ــ منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، الجماهيرية العربية الليبية ط 3 ــ 2006.

3 – الكوني، إبراهيم: المجوس ــ منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام ط 5 /2006.

4 – الكوني، إبراهيم: الدنيا أيام ثلاثة ــ اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام 2006.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2011/7/17.